

إشكالية التصوف بين الحضارة والثقافة عند المفكرين

جرود شفيعة

إشراف: د.بن لزعر سيد أحمد

طالبة دكتوراه إعلام واتصال. جامعة وهران 1. أحمد بن بلة

إن أهمية تحديد وضبط المصطلحات، في أي بحث كان، تكمن في رفع اللبس والغموض الذي يعتريه، وتمكن من تذليل الصعوبات وتوضيح المقاصد، وبيان الغاية، والهدف من ورائه.

قد يصدق هذا على أغلب الموضوعات، التي يتناولها أي باحث بالدراسة. غير أنها في موضوعنا هذا تحتاج بالإضافة إلى ذلك، تعمق أكثر، وفحص، وتمحيص. وذلك نظرا إلى الخلاف والإختلاف الحاصل بين المؤرخين والباحثين المهتمين بالشأن الصوفي، والتصوف عموما. هذا من جهة، ومن جهة أخرى الإختلاف في تحديد المفاهيم وأسسها المتعلقة بمصطلح الحضارة والثقافة على حد سواء. وما بينهما من تداخل وتشابك، ولفك ذلك نلجأ إلى التعريفات الكلاسيكية، وقد يؤالف هذا الحالات التي نعالج فيها المفاهيم السالفة في جوهرها وتحديد دلالاتها عموما، ثم التفرعات التي تنجم عنها إلى أن نستخلص الخصائص والمميزات.

أما إذا ما تعلق الأمر بالتصوف، فالوضع يختلف. ذلك أننا بصدد النبش في التراث الإنساني عموما، والإسلامي على وجه الخصوص. ولا يجدي مع ذلك سرد للتعريفات الكلاسيكية، والاكتفاء بها والتعويل عليها.

إن ثقل كلمتي الثقافة والحضارة تساوي ثقل كلمة التصوف، رغم تداولها الذي يبدو من البساطة بمكان. ومرد ذلك إلى الخلاف الحادث في شأنهما من المنبع إلى المصب.

من هنا تكمن صعوبة تحديد الأبعاد، والامتدادات المتعلقة بالطرق الصوفية لكل منهما، وبخاصة في الجزائر، ذلك أن التصوف هو الآخر مختلف بشأنه من جهة، ومن جهة أخرى موضعه كتراث ثقافي له جوانب حضارية. والتراث هو ذلك الإرث

الموروث الذي تتناقله الأجيال عبر الأزمنة، وهو تكامل، واستمرار، وديمومة في حياة المجتمع تقيه الزوال والإنذار.

بما أن الأمر إلى حد استحالة الحسم والجزم، في فك هذه العقد. فإنه من الصواب السير بمنهجية لا تعرف بالوحدة في الإتياع، غير أنها تنساق، والغاية من بسط، وتبسيط هذه المفاهيم تماشياً مع طبيعة الاشكال.

أ- مفهوم الحضارة

1- الحضارة لغة: هي سكنى الحضر⁽¹⁾، وتدلل على إقامة مجموعة من الناس في الحضر، ومواطن العمران

و تقابلها كلمة: البداوة⁽²⁾ وهي: لغة سكنى البادية، أو الصحراء، وحياة أهل البادية التي ترتحل وتسكن الخيام. وهي في حركة وتنقل تبعاً لمعيشتها التي تعتمد على رعي الأغنام. ومن هنا كانت المقابلة بين الحضر والبدو هي الاستقرار والتنقل⁽³⁾. فالحضر أهل القرار، والحضري هو القراري. لأنه يستقر ولا ينتقل طلباً للكلا في موطنه، ومن أوصاف أهل الحضر:

هو أنهم أهل مدن، أو أهل الحجر. لأنهم يسكنون بيوت من طين أو الحجر، خلافاً لأهل الوب الذين يسكنون الخيام المصنوعة من شعر الماعز، أو الصوف الغنم، أو وبر الإبل.

يعطي ابن خلدون مفهوماً للحضارة على أنها نمط من الحياة المستقرة التي تزدهر في ظلها الفنون، من العيش والعلوم والصناعات، وإدارة شؤون الحكم، وتوطيد أسباب الحياة، والدعة.

وقد جاء في تصنيفه للعلوم العقلية والنقلية⁽⁴⁾، أن سبب نفاق العلوم في المشرق، وكسادها في المغرب مرده إلى العمران الذي يشكل المدينة. والحضارة لغة: تعني أيضاً المدينة أي المقيم في سكنى المدن⁽⁵⁾. وقد يشتركان في السلوك المتعلق بكل منهما، هذا من ناحية ومن أخرى، فإن كل من الحاضرة والمدينة، تدلان على حياة التمتع، والترف. غير أنه لا بد من الفصل بين المدينة والحضارة في بعض الخصوصيات كون الإطلاق القائم على الترادف بين الحضارة والمدينة فيه بعض التعقيم. فلا بد من التمييز بين الجانب الفكري، والمادي. وعلى هذا

الأساس يتوقف استمرار ترادف المعنيين، فيلزم الحال وبمقتضى الضرورة العلمية تحديد مفاهيم للتمييز بين الحضارة بمدلولها الفكري والروحي⁽⁶⁾ والمدينة بما تدل عليه من الجانب المادي. ولذلك فإن بيان الترادف بين المعنيين في سياق اللغة، فإن الاصطلاح للمفهومين يفك هذه العقدة.

2- الحضارة اصطلاحاً:

يوجد ما لا يحصى من التعريفات لمفهوم الحضارة⁽⁷⁾. ولو تعرضت إلى بسطها لأدى ذلك إلى الإستطرد والتعليق، مما يخرجني عن نطاق البحث، والقصد من وراء تحديد هذا المفهوم. في حين أن أقرب دلالة يمكنها أن تفصل المدينة عن الحضارة، هي أن الحضارة مجموعة المفاهيم الناتجة من وجهة نظر الأمة التي تشكل طرازاً خاصاً بها في الحياة⁽⁸⁾، فالحضارة خاصة بالأمة تبعاً لوجهة نظرها في الحياة. هذا على العموم، وعلى الخصوص، فإن الحضارة الإسلامية في الحياة والصادرة عن العقيدة الإسلامية وهو طراز الحياة الإسلامية⁽⁹⁾.

قد تكون لعناصر هذه الحضارة خاصية تختلف عن باقي الحضارات وهذا ما سنراه في بحث مفهوم الثقافة الإسلامية.

ب- المدينة: هي الأشكال المادية للأشياء المحسوسة⁽¹⁰⁾ التي يصنعها الإنسان بغرض تسهيل الحياة، ولها جانبان:

الأول: عام لا يختص بأمة دون أخرى، ولا يخضع إلى فلسفة الحياة، فلأمانع أن تقتبس الأمم من بعضها البعض، ومثل ذلك أشكال المدينة التي تنتج عن العلم، وتقدمه والصناعة وتطورها وخلافه.

الثاني: خاص كالحضارة، تختلف الأمم فيها لخضوعها إلى فلسفة الحياة باستخدام المستلزمات الحياتية، من وسائل، وأدوات، وفيها يدخل المنع من الأخذ إذ لم يكن هناك ما يبيح استعماله، بالنسبة للرجل أو المرأة على حد سواء. فما يعتبر فناً في الحضارة الغربية، يعتبر محرماً في الحضارة الإسلامية، ويظهر هذا تحديداً عند تعرضنا لمفهوم الثقافة.

د- العلم: لغة: يطلق في اللغة على المعرفة يقال علمت شيئاً أي عرفت⁽¹¹⁾ والعلم قبل العصر الحديث كان يطلق على المعرفة المنظمة التي لها أبوابها

ومسائلها، سواء كانت المعرفة ثقافية، كعلم التاريخ والتصوف وعلم اللغة أو معرفة علمية، كالكيمياء، والطب، غير انه كالثقافة أصبح للعلم تعريف اصطلاحى فى العصر الحديث.

2- العلم إصطلاحاً: هو المعرفة التى تؤخذ عن طريق الملاحظة والتجربة والاستنتاج⁽¹²⁾، كعلم الفيزياء والكيمياء والطب وسائر العلوم التجريبية وهو الجانب العملى للثقافة، والوسائل المادية التى ينتجها العلم عن طريق منهج التجريب وتقتصر هذه الوظيفة على العلماء بالدرجة الأولى للقيام بالتجارب أما الثقافة والتثقيف ويطلق عليها بالتنشئة الثقافية فى من مهام الرسل والمفكرين وأهل التربية ومن بينهم شيوخ الطرق الصوفية الذين يضطلعون بأولى مهام الثقافة التربوية الإسلامية النابعة عن صميم الثقافة الإسلامية وهذه ما أحاول الوصول فيه إلى تحديد مفهوم الثقافة الإسلامية.

و- الثقافة الإسلامية: هى تلك المعارف التى كانت العقيدة الإسلامية سببا فى بحثها. كعلم التوحيد، والفقه والتسيير وعلوم الحديث⁽¹³⁾. ولذلك فالثقافة بكل مكوناتها تشكل طرازاً خاصاً للأمة الإسلامية، وبهذا فهى تساهم بشكل كبير فى المحافظة على هوية المسلم وكيانه من جهة وتحقيق معنى العبودية لله وما تقتضيه حيات المسلم فى ظل تعاقب تيارات مختلفة التى تشكل حياة الإنسان على وجه الأرض، وخاصة الحضارات التى ساهمت بشكل، أو بأخر فى سعة أفق الحضارات المتلاحقة لاسيما الحضارة الإسلامية.

إن الثقافة الإسلامية التى تعتبر المادة التى بفضلها تستمر الحياة الإسلامية، كمادة الإنسان العربى فى الإسلام الذى يعتبر أساس فى نشره فلولاً العنصر العربى كمادة للإسلام ما انتشر فى أرجاء مناطق العالم وهو حال الثقافة الإسلامية فى بقاء موروث الإسلامى واتصاله.

من هذا المنطلق يمكن اعتبار الثقافة الإسلامية أصل ثابت لا يمكن تغييره بواسطة التيارات المعادية التى تحمل ثقافات تختلف فى أساسها عن الثقافة الإسلامية بالتالى لا يمكنها أن تساهم فى الحضارة الإسلامية.

ج- الثقافة اللغة: تدل كلمة على معان متعددة كالحذق وسرعة الفهم والتهديب وتقويم المعوج وغير ذلك من المعاني⁽¹⁴⁾ غير أننا نجد لها اصطلاحاً في العصر الحديث.

2-الثقافة اصطلاحاً: يعرف "تيلر" الثقافة بأنها "كل مركب يشمل المعرفة، والإيمان، والفن، والقانون والأخلاق، والعادات، والميول الأخرى للإنسان، من حيث هو عضو في المجتمع"⁽¹⁵⁾ أما رالف لينتون فيري أنها "تنظيم للسلوك المكتسب ونتائج ذلك السلوك، يشترك في مكوناتها.

اللغة، وعلم التصوف فهذه مجتمعة وما تفرع عنها، وما لحق بها يمثل الثقافة الإسلامية، والجانب الذي مثل الوعاء الذي صبت فيه الثقافة الإسلامية ميراثها الإنساني عموماً والإسلامي على وجه الخصوص هو التصوف والذي يركز بالأساس على الكتاب والسنة وهو من أخصب حقول الثقافة الإسلامية، والذي كان له أكبر الأثر في إثرائها. إثر التطور الذي عرفه وملأته البيئة الاجتماعية خلال أطوار التاريخ الإسلامي.

خاتمة

نتهي الى أنه يسحيل الفصل بين الحضارة والثقافة في كثير من المجالات بارغم أن الدلالات اللغوية تشير الى الحضارة في شقها المادي هي كل المنجزات التي حققها الانسان عبر التاريخ في حين أن الثقافة تشمل الى الجانب المادي الجانب المعنوي وهو تحصيل ما اكتسبه الانسان مرتبط تمام الارتباط ببيئاته وعلاقاته الاجتماعية. ولا تزال المحاولات مستمرة للتفريق العملي بين كلا المفهومين من خلال كثرة تداول أحد اللفظين بين العلم المتقدم والسائر في طريق النمو وعلى هذا الاساس لايمكن الجزم في هذه المسألة مادام الاختلاف كبير بين الدول المتحضرة وغيرها.

الهوامش

- 1- الفيروز (أبادي)، القاموس المحيط ج2، دار العلم للجميع، بيروت د ت ط، ص 10
- 2- الشيخ رضا (محمد)، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت المجلد الثاني، 1377-1958، ص 111، للتفصيل أكثر ينظر، معجم مقاييس اللغة ج2، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، 1399هـ-1979م، ص 86.

- 3- ابن خلدون (عبد الرحمن)، مقدمة، دار إحياء التراث العربي ج 1، شركة علاء الدين للطباعة والتجليد د ت ص 172
- 4- ابن خلدون (عبد الرحمن)، نفس المرجع، ونفس الصفحة
- 5- ابن خلدون (عبد الرحمن)، نفس المرجع، ص 479
- 6- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)، لسان العرب ج 5، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة دت، ص 272
- 7- الشرتوني (السعيد الخوري)، ذيل أقرب الموارد ج 3، مطبعة مرسلو اليسوعية بيروت 1893 برخصة معارف ولاية بيروت الجيلة 180، ص 136
- 8- الزبيدي (محمد مرتضى)، تاج العروس من جواهر القاموس المجلد الثالث، دار مكتب الحياة، بيروت د ت، ص 246، وقد استشهد في تعريفه للحضارة ببيت القطاني حيث قال:
- 9- فمن تكن الحضارة أعجبتة: فأني رجال البادية ترانا، للتفصيل أكثر ينظر، الزمخشري أساس البلاغة دار صادر، دار بيروت، 1385هـ/1965م ص 130
- 10- الزمخشري: الإمام العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري
- 11- مادة علم لسان العرب للإبن منظور، القاموس المحيط للفيروز أبادي، وأساس البلاغة للزمخشري
- 12- عاطف (سميح)، الثقافة والثقافة الإسلامية. المرجع السابق، ص 283
- 13- التميمي عز الدين الخطيب المرجع السابق، ص 13
- 14- أبو الحسين (أحمد بن فارس بن زكريا) ج 1، ص 382
- 15- وهبة (مراد)، معجم المصطلحات الفلسفية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، عبده غريب، القاهرة، ط 4، 1998، ص، 293 و 294